مجلة المرابط

العدد : ١٨٧ الموافق في شوال ١٤١٧ هجري ٣ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : تأملات في صور قذرة !	بقلم : إبراهيم عبد الله

لست أدري لماذا أجدني في عجلة من أمري ، وقد هزني الشوق إلى القلم لكتابة تأملات حول هذه الصور القذرة التي بثها التلفاز الأمريكي ونقلتها محطات تلفزية كثيرة يوم ١ فبراير ١٩٩٧ ، والتي تصور هؤلاء الجنود الشبان الجدد الملتحقين بسلاح المارينز ، وهم برفقة أصدقاء لهم أو بالأحرى زملاء لهم سبقوهم في المهنة ، "يرحبون" بهم ترحيباً مؤلماً ، ليصبحوا بعده أفراداً من العائلة العسكرية ، وأجزاء لا تتجزأ من البناء العسكري الأمريكي.

وهذه الصورة لمن شاهدها - ولا أشك أن تكون قد فاتت أحداً - تبرز هؤلاء الشبان الجدد ، بعد حصة من الرياضة الخفيفة ، يقفون بقمصان بيض مسندة ظهورهم إلى جدار ، ثم يتقدم من كل واحد منهم جندي "قديم" - يبدو أن قلبه قُدّ من حجر - فيغرس في صدر زميله صفيحة من حديد قد نتأ منها دبابيس حادة ، ثم يضغط عليها بيدين قويتين ، ويحركها في صدر الفتى الذي يتضور من الألم أمام الحضور ، وقد شل رد فعله. وينتهي المشهد بضربة قوية على صدر هذا الفتى "الجديد" قد تسقطه أرضاً ، وإذا تجرأ أحدهم وأبدى مقاومة قوبل بعنف مبالغ. ثم تنتهي هذه الصورة لتظهر صور أخرى ، يراد لها أن تمحو أثر الصور الأولى ، صور تظهر الأيدي المعذِبة القاسية ، وقد تحولت بقدرة قادر إلى أيدٍ مشفقة حانية ، تمتد حول أعناق العسكريين الذين يسيل الدم من صدورهم ، وقد علت وجوههم ابتسامة باهتة...!!.

ما هو الهدف من هذا المحفل إذن ؟

إنه بكل بساطة - كما يزعمون - تحقيق الانسجام بين الفصائل القديمة والفصائل الحديثة ، وإذابة كل كلفة قد تحول مستقبلاً دون التعاون التام لأداء المهام الحربية المطلوبة.

إن ما أثارني في هذه الصور القذرة ليس هم محليتها ، أو أنها هزت الرأي العام الأمريكي كما قيل لنا ، ولكن ما يهز أكثر أن هذه الصور ، قد تبدو بجهة من الجهات سلوكاً عاماً بحضرة كثير من التجمعات والمؤسسات في أنحاء من هذه "القرية الصغيرة" وبخاصة في هذا الجزء المتوسط منها. فهو سلوك حاضر بهدفه المعلن ، وإن كان ليس بهذه الهمجية ، ولكن في نهاية الأمر يبدو أنه لا أحد يستطيع أن يقول قولاً محكماً في هذه الأمور في غياب بينات واضحة...

لكن عندما شاهدت هذه الصور الأمريكية القذرة ، تداعت إلى ذهني - دون سابق إصرار - صورتان:

- صورة هذا الأخ الذي أعرفه حق المعرفة ، والذي التحق بمؤسسة علمية ففرض عليه ، من أجل الاندماج في صفوف الطلبة ، القيام بسلوكات يندى لها جبين العلم والأخلاق ، وهي سلوكات تعتبر عندهم من تقاليد المعهد ، إما أن يخضع لها الطالب الجديد فيصبح جزءاً من المعهد ، وإما أن يرفضها فيصبح غريباً عن المعهد ، وقبل هذا الأخ هذه السلوكات ، وامتنع مدة عن زيارتنا ، لأنهم حلقوا رأسه ، ولم يحك كل شيء لبقية حياء بيننا ، ولكن مصادر أخرى حكت فأدمت قلباً وإن لم يسل دم مهراق ، وإن كان في هذا ما يهز فعلاً.
- وصورة أخرى صورة هذا الأستاذ الذي أمضى تدريباً في مؤسسة عسكرية من مؤسسات المجتمع ، وعومل هناك معاملة لم يفصل القول فيها ، ولكن لخصها في قوله : إنها معاملة تزيل الإنسانية من قلوبنا ، حتى إذا أمرنا بالقيام بسلوك ما ، لم تجد الرحمة سبيلها إلى قلوبنا ، إنهم بهذه السلوكات الوحشية يقتلعون الرحمة من الأفئدة ، ويربوننا على خشونة وقساوة متحررة من هذه الأخلاقيات التي تسكن قلوب "المدنيين" ، وهم بذلك يقيمون قطيعة بيننا ، فإذا نظرتنا إلى الآخرين نظرة توجس وحذر ، وإذا بطشتنا بطشة جبارين...

أليس هذا الذي يسمونه البُرُوتاج وباء عالمي إذن ؟

إنني لا أشك أن كثيراً من الناس يختزنون ذكريات عن أيام قذرة عاشوها عند ولوجهم مؤسسات معينة ، وكلما ذكروها طاف بهم طائف من حزن وألم عميق ، إن كان لا يزال في قلوبهم بقية من إنسانية ، ولم تتمكن تلك "التدريبات" القاسية من استئصالها من الجذور ، كما نجد في سلوكيات بشر هم للأنعام أقرب منهم لبني الإنسان ، فلا يتورعون عن ذبح الأطفال والشيوخ والنساء ، وترويع الآمنين في بلدان من أحب البلاد إلى قلوب كثير من المسلمين.

إن ما تكشف عنه هذه الصور القذرة التي بثها التلفاز الأمريكي ليس هو ما نراه ، وإن كان ما رأيناه يتقطر له القلب كمداً ، إن هذه الصور تثير لدينا أكثر من سؤال ؛ ومن أهم هذه الأسئلة : ألا يمكن أن تكون هذه الصور في نهاية المطاف خلفية لا شعورية معتمة من خلفيات نظامنا التربوي العام الذي يُغيب نفحة الرحمة والرفق التي تسكن نظامنا التربوي الإسلامي؟.